تفسير سورة الحجرات

هى ثمانى عشرة آية . وهى مدنية . قال القرطبى : بالإجماع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس وابن الزبير ؛ أنها نزلت بالمدينة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) ﴾

قوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ تقدّموا ﴾ بضم المثناة الفوقية ، وتشديد الدال مكسورة ، وفيه وجهان : أحدهما : أنه متعدّ ، وحذف مفعوله لقصد التعميم ، أو ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل ، كقولهم : هو يعطى ويمنع ، والثانى : أنه لازم ، نحو : وجه وتوجه ، ويعضده قراءة ابن عباس والضحاك ويعقوب : «تقدموا» بفتح التاء والقاف والدال . قال الواحدى : قدم هاهنا بمعنى تقدم ، وهو لازم . قال أبو عبيدة : العرب تقول : لا تقدّم بين يدى الإمام وبين يدى الأب ، أى لا تعجل بالأمر دونه والنهى ؛ لأن المعنى : لا تقدّموا قبل أمرهما ونهيهما ، وبين يدى الإمام عبارة عن الإمام لا ما بين يدى الإنسان ، ومعنى الآية : لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله ولا تعجلوا به . وقيل : المراد معنى بين يدى فلان : بحضرته ؛ لأن ما يحضره الإنسان فهو بين يديه ﴿ واتقوا الله ﴾ فى كل أموركم ، ويدخل تحتها الترك للتقدم بين يدى الله ورسوله دخولا أوّليا . ثم علل ما أمر به من التقوى بقوله : ﴿ إن الله سميع ﴾ لكل مسموع ﴿ عليم ﴾ بكل معلوم .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ﴾ يحتمل أن المراد حقيقة رفع

الصوت ؛ لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام ؛ لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير ، ويحتمل أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام ومزيد اللغط ، والأول أولى ، والمعنى : لا ترفعوا أصواتكم إلى حدّ يكون فوق ما يبلغه صوت النبى ﷺ . قال المفسرون : المراد من الآية : تعظيم النبى ﷺ وتوقيره وأن لا ينادوه كما ينادى بعضهم بعضا ﴿**ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض**﴾ أى لا تجهروا بالقول إذا كلمتموه كما تعتادونه من الجهر بالقول إذا كلم بعضكم بعضا ، قال الزجاج : أمرهم الله بتجليل نبيه ، وأن يغضوا أصواتهم ويخاطبوه بالسكينة والوقار . وقيل : المراد بقوله :﴿ **ولا تجهروا له بالقول** ﴾ لا تقولوا: يا محمد ويا أحمد ، ولكن يا نبى الله ، ويا رسول الله ، توقيراً له ، والكاف فى محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف ، أى جهراً مثل جهر بعضكم لبعض ، وليس المراد برفع الصوت وبالجهر فى القول : هو ما يقع على طريقة الاستخفاف فإن ذلك كفر ، وإنما المراد: أن يكون الصوت فى نفسه غير مناسب لما يقع فى مواقف من يجب تعظيمه وتوقيره ، والحاصل أن النهى هنا وقع عن أمور : الأول : عن التقدّم بين يديه بما لا يأذن به من الكلام ، والثانى : عن رفع الصوت البالغ إلى حدّ يكون فوق صوته سواء كان فى خطابه أو فى خطاب غيره ، والثالث : ترك الجفاء فى مخاطبته ولزوم الأدب فى مجاورته ؛ لأن المقاولة المجهورة إنما تكون بين الأكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزية توجب احترامه وتوقيره. ثم علل سبحانه ما ذكره بقوله : ﴿ **أن تحبط أعمالكم** ﴾ قال الزجاج : أن تحبط أعمالكم ، التقدير : لأن تحبط أعمالكم ، أى فتحبط ، فاللام المقدرة لام الصيرورة كذا قال ، وهذه العلة يصح أن تكون للنهى ، أى نهاكم الله عن الجهر خشية أن تحبط ، أو كراهة أن تحبط ، أو علة للمنهى ، أى لا تفعلوا الجهر فإنه يؤدى إلى الحبوط ، فكلام الزجاج ينظر إلى الوجه الثانى لا إلى الوجه الأول ، وجملة : ﴿**وأنتم لا تشعرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وفيه تحذير شديد ووعيد عظيم ، قال الزجاج: وليس المراد : وأنتم لا تشعرون يوجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم ، فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لايعلم .

ثم رغب سبحانه فى امتثال ما أمر به فقال : ﴿**إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله**﴾ أصل الغض: النقص من كل شىء ، ومنه نقص الصوت ﴿ **أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى** ﴾ قال الفراء : أخلص قلوبهم للتقوى كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخرج جيده عن رديئه ويسقط خبيثه . وبه قال مقاتل ومجاهد وقتادة، وقال الأخفش : اختصها للتقوى . وقيل : طهرها من كل قبيح . وقيل : وسعها وسرّحها ، من محنت الأديم : إذا وسعته ، وقال أبو عمرو : كل شىء جهدته فقد محنته ، واللام فى ﴿ **للتقوى** ﴾ متعلقة بمحذوف ، أى صالحة للتقوى، كقولك : أنت صالح لكذا ، أو للتعليل الجارى مجرى بيان السبب ، كقولك : جئتك لأداء الواجب ، أى ليكون مجيئى سببا لأداء الواجب ﴿ **لهم مغفرة وأجر عظيم** ﴾ أى أولئك لهم ، فهو خبر آخر لاسم الإشارة ، ويجوز أن يكون مستأنفا لبيان ما أعدّ

الله لهم فى الآخرة . ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون** ﴾ هم جفاة بنى تميم كما سيأتى بيانه ، و ﴿ **وراء الحجرات** ﴾ :خارجها وخلفها ، والحجرات جمع حجرة ، كالغرفات جمع غرفة ، والظلمات جمع ظلمة . وقيل : الحجرات :جمع حجرة ، والحجر جمع حجرة ، فهو جمع الجمع ، والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة . قرأ الجمهور : ﴿ **الحجرات** ﴾ بضم الجيم ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بفتحها تخفيفا ، وقرأ ابن أبى عبلة بإسكانها ، وهى لغات و « من » فى : ﴿ **من وراء** ﴾ لابتداء الغاية ، ولا وجه للمنع من جعلها لهذا المعنى ﴿ **أكثرهم لا يعقلون** ﴾ لغلبة الجهل عليهم، وكثرة الجفاء فى طباعهم .

﴿ **ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم** ﴾ أى لو انتظروا خروجك ولم يعجلوا بالمناداة لكان أصلح لهم فى دينهم ودنياهم ، لما فى ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله ﷺ ، ورعاية جانبه الشريف ، والعمل بما يستحقه من التعظيم والتبجيل . وقيل : إنهم جاؤوا شفعاء فى أسارى ، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم وفادى نصفهم ، ولو صبروا لأعتق الجميع ذكر معناه مقاتل ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ كثير المغفرة والرحمة بليغهما لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب . ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿**فتبينوا**﴾ من التبين ، وقرأ حمزة والكسائى :« فتثبتوا » من التثبت ، والمراد من التبين : التعرف والتفحص ، ومن التثبت : الأناة وعدم العجلة ، والتبصر فى الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر . قال المفسرون : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط كما سيأتى بيانه إن شاء الله ، وقوله: ﴿ **أن تصيبوا قوما بجهالة** ﴾ مفعول له، أى كراهة أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا ؛ لأن الخطأ ممن لم يتبين ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة ؛ لأنه لم يصدر عن علم، والمعنى : ملتبسين بجهالة بحالهم ﴿ **فتصبحوا على ما فعلتم**﴾ بهم من إصابتهم بالخطأ ﴿ **نادمين** ﴾ على ذلك مغتمين له مهتمين به .

ثم وعظهم الله سبحانه فقال : ﴿**واعلموا أن فيكم رسول الله** ﴾ فلا تقولوا قولا باطلا ولا تتسرّعوا عند وصول الخبر إليكم من غير تبين ، و« أن » وما فى حيزها سادة مسدّ مفعولى اعلموا، وجملة : ﴿ **لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير « فيكم » أو مستأنفة ، والمعنى : لو يطيعكم فى كثير مما تخبرونه به من الأخبار الباطلة ، وتشيرون به عليه من الآراء التى ليست بصواب لوقعتم فى العنت وهو التعب والجهد ، والإثم والهلاك ، ولكنه لا يطيعكم فى غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان**﴾ أى جعله أحبّ الأشياء إليكم ، أو محبوبا لديكم فلا يقع منكم إلا ما يوافقه ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع فى الأخبار وعدم التثبت فيها . قيل : والمراد بهؤلاء : من عدا الأوّلين لبيان براءتهم عن أوصاف الأوّلين ، والظاهر أنه تذكير للكل بما يقتضيه الإيمان وتوجبه محبته التى جعلها الله فى قلوبهم ﴿ **وزينه**

فى قلوبكم ﴾ أى حسنه بتوفيقه ، حتى جـروا على ما يقتضيه فى الأقوال والأفعال ﴿ **وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان** ﴾ أى جعل كل ما هو من جنس الفسوق ، ومن جنس العصيان مكروهاً عندكم ، وأصل الفسق : الخروج عن الطاعة ، والعصيان : جنس ما يعصى الله به . وقيل : أراد بذلك الكذب خاصة ، والأول أولى ﴿ **أولئك هم الراشدون** ﴾ أى الموصوفون بما ذكرهم الراشدون ، والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب من الرشادة ، وهى الصخرة ﴿ **فـضلا من الله ونعمة** ﴾ أى لأجل فضله وإنعامه ، والمعنى : أنه حبب إليكم ما حبّب وكرّه ماكرّه لأجل فضله وإنعامه ، أو جعلكم راشدين لأجل ذلك . وقيل : النصب بتقدير فعل ، أى تبتغون فضلا نعمة ﴿ **والله عليم** ﴾ بكل معلوم ﴿ **حكيم** ﴾ فى كل ما يقضى به بين عباده ويقدرّه لهم .

وقد أخرج البخارى وغيره عن عبد الله بن الزبير قال :قدم ركب من بنى تميم على النبى ﷺ ، فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتها فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** ﴾ حتى انقضت الآية [1] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** ﴾ قال : نهوا أن يتكلموا بين يدى كلامه . وأخرج ابن مردويه عن عائشة فى الآية: قالت: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم. وأخرج البخارى فى تاريخه عنها قالت: كان أناس يتقدمون بين يدى رمضان بصيام يعنى : يوماً أو يومين. فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدى الله ورسوله** ﴾ . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عنها أيضاً أن ناسا كانوا يتقدّمون الشهر فيصومون قبل النبى ﷺ فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ الآية .

وأخرج البزار وابن عدى والحاكم وابن مردويه عن أبى بكر الصديق قال : أنزلت هذه الآية: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى** ﴾ قلت : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخى السرار ، وفى إسناده حصين بن عمر وهو ضعيف ، ولكنه يؤيده ما أخرجه عبد بن حميد ، والحاكم وصححه من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال : لما نزلت : ﴿ **إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله** ﴾ قال أبو بكر: والذى أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأُخى السرار حتى ألقى الله [2] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال: لما نزلت : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى** ﴾ إلى قوله : ﴿**وأنتم لا تشعرون** ﴾ وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ ، حبط عملى ، أنا من أهل النار وجلس فى بيته حزينا ، ففقده رسول الله ﷺ ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا: فقدك رسول الله ﷺ ، مالك ؟ قال : أنا الذى أرفع

(١) البخارى فى المغازى (٤٣٦٧) وفى التفسير (٤٨٤٥ ، ٤٨٤٧) والنسائى فى التفسير (٥٣٤) .
(٢) ابن عدى فى الكامل ٢/ ٣٩٦ ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

صوتى فوق صوت النبىّ وأجهر له بالقول ، حبط عملى ، أنا من أهل النار ، فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بذلك ، فقال : « لا ، بل هو من أهل الجنة » ، فلما كان يوم اليمامة قتل . وفى الباب أحاديث بمعناه (١) . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ **أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى** ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ منهم ثابت بن قيس بن شماس .

وأخرج أحمد وابن جرير وأبو القاسم البغوى والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند صحيح ، من طريق أبى سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس ؛ أنه أتى النبى ﷺ فقال : يا محمد ، أخرج إلينا ، فلم يجبه ، فقال : يا محمد ، إن حمدى زين، وإن ذمى شين ، فقال : « ذاك الله » ، فأنزل الله : ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات** ﴾ (٢) قال ابن منيع : لا أعلم روى الأقرع مسنداً غير هذا . وأخرج الترمذى وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب فى قوله : ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات** ﴾ قال: جاء رجل فقال : يا محمد إن حمدى زين وإن ذمى شين ، فقال النبى ﷺ : « ذاك الله » (٣) . وأخرج ابن راهويه ومسدد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بإسناد حسن ، عن زيد بن أرقم قال : اجتمع ناس من العرب فقالوا : انطلقوا إلى هذا الرجل فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكاً نعش بجناحه ، فأتيت النبىّ ﷺ فأخبرته بما قالوا ، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه : يا محمد يا محمد فأنزل الله : ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون** ﴾ فأخذ رسول الله ﷺ بأذنى وجعل يقول : « لقد صدّق الله قولك يا زيد ، لقد صدّق الله قولك يا زيد » (٤) . وفى الباب أحاديث .

وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند جيد، عن الحارث بن ضرار الخزاعى قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعانى إلى الإسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ، ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت : يا رسول الله ، أرجع إلى قومى فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب إلى جمعت زكاته وترسل إلىّ يارسول الله رسولا لإبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت ، فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله ، فدعا سروات قومه فقال لهم : إن رسول الله ﷺ

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٤٦) ومسلم فى الإيمان (١٨٧/ ١١٩) والنسائى فى التفسير (٥٣٣) .

(٢) أحمد ٣/ ٤٨٨، ٦/ ٣٩٣ وابن جرير ٢٦/ ٧٧ والطبرانى (٨٧٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٨ : «وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح، إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع وإلا فهو مرسل كإسناد أحمد الآخر».

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٦٧) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ٢٦/ ٧٧ .

(٤) ابن جرير ٢٦/ ٧٧ والطبرانى ٢٣/ ٥ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١١ : « فيه داود بن راشد الطفاوى ، وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين ، وبقية رجاله ثقات » .

كان وقت لى وقتا يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة ، وليس من رسول الله الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا فنأتى رسول الله ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَقَ [1] فرجع ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى ، فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث ، فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث ، فقالوا : هذا الحارث ؟ فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك ، قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة، وأردت قتله ، قال : لا والذى بعث محمداً بالحق ما رأيته بتة ولا أتانى ، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : « منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟ » قال : لا والذى بعثك بالحقّ ما رأيته ولا رآنى . وما أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسول الله ﷺ خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ورسوله فنزل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **حكيم** ﴾ قال ابن كثير : هذا من أحسن ما روى فى سبب نزول الآية. وقد رويت روايات كثيرة متفقة على أنه سبب نزول الآية ، وأنه المراد بها وإن اختلفت القصص [2] .

﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)** ﴾

قوله : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **اقتتلوا** ﴾ باعتبار كل فرد من أفراد الطائفتين كقوله : ﴿ هذان خصمان اختصموا ﴾ [الحج : ١٩] والضمير فى قوله : ﴿**بينهما**﴾ عائد إلى الطائفتين باعتبار اللفظ ، وقرأ ابن أبى عبلة : « اقتتلتا » اعتبارا بلفظ طائفتان ، وقرأ زيد بن علىّ وعبيد بن عمير : « اقتتلا » وتذكير الفعل فى هذه القراءة باعتبار

(١) فرق : خاف .

(٢) أحمد ٤/ ٢٧٩ والطبرانى (٣٣٩٥) وابن كثير ٦/ ٣٧٣ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٢ : « ورجال أحمد ثقات».

الفريقين أو الرهطين . والبغى : التعدّى بغير حق والامتناع من الصلح الموافق للصواب ، والفيء: الرجوع . والمعنى : أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ، ويدعوهم إلى حكم الله ، فإن حصل بعد ذلك التعدّى من إحدى الطائفتين على الأخرى، ولم تقبل الصلح ، ولا دخلت فيه ، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه ، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين فى الحكم ويتحرّوا الصواب المطابق لحكم الله ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم ، وتؤدّى ما يجب عليها للأخرى ، ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا فى كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين فقال : ﴿ **وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ أى واعدلوا إن الله يحب العادلين ، ومحبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء ، قال الحسن وقتادة والسدّى : ﴿**فأصلحوا بينهما**﴾ بالدعاء إلى حكم كتاب الله والرضا بما فيه لهما وعليهما ﴿ **فإن بغت إحداهما** ﴾ وطلبت ما ليس لها ولم ترجع إلى الصلح ﴿ **فقاتلوا التى تبغى** ﴾ حتى ترجع إلى طاعة الله والصلح الذى أمر الله به .

وجملة : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من الأمر بالإصلاح ، والمعنى : أنهم راجعون إلى أصل واحد وهو الإيمان . قال الزجاج : الدين يجمعهم ، فهم إخوة إذا كانوا متفقين فى دينهم فرجعوا بالاتفاق فى الدين إلى أصل النسب لأنهم لآدم وحواء ﴿**فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ يعنى : كل مسلمين تخاصما وتقاتلا ، وتخصيص الاثنين بالذكر؛ لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى . قرأ الجمهور : ﴿ **بين أخويكم** ﴾ على التثنية ، وقرأ زيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود والحسن وحماد بن سلمة وابن سيرين : «إخوانكم » بالجمع . وروى عن أبى عمرو ونصر بن عاصم وأبى العالية والجحدرى ويعقوب أنهم قرؤوا : « بين إخوتكم » بالفوقية على الجمع أيضا . قال أبو علىّ الفارسى فى توجيه قراءة الجمهور : أراد بالأخوين : الطائفتين ؛ لأن لفظ التثنية قد يرد ويراد به الكثرة . وقال أبو عبيدة: أى أصلحوا بين كل أخوين ﴿ **واتقوا الله** ﴾ فى كل أموركم ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ بسبب التقوى، والترجى باعتبار المخاطبين ، أى راجين أن ترحموا ، وفى هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرّر بغيها على الإمام ، أو على أحد من المسلمين ، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مستدلا بقوله ﷺ : « قتال المسلم كفر » [1] فإن المراد بهذا الحديث وما ورد فى معناه قتال المسلم الذى لم يبغ . قال ابن جرير : لو كان الواجب فى كل اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حقّ، ولا أبطل باطل ولوجدَ أهل النفاق والفجور سببا إلى استحلال كل ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين وسبى نسائهم

(١) البخارى فى الإيمان (٤٨) والأدب (٦٠٤٤) والفتنة (٧٠٧٦) ومسلم فى الإيمان (٦٤/ ١١٦) والترمذى فى البر (١٩٨٣) وقال : «هذا حديث حسن صحيح » عن عبد الله بن مسعود .

وسفك دمائهم بأن يتحزبوا عليهم ، ولكفّ المسلمين أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله ﷺ : « خذوا على أيدى سفهائكم » (١) . قال ابن العربى : هذه الآية أصل فى قتال المسلمين ، وعمدة فى حرب المتأوّلين ، وعليها عوّل الصحابة ، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة ، وإياها عنى النبى ﷺ بقوله :« تقتل عماراً الفئة الباغية » (٢) وقوله ﷺ فى شأن الخوارج : «يخرجون على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحقّ » .

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم** ﴾ السخرية : الاستهزاء . وحكى أبو زيد : سخرت به وضحكت به وهزأت به ، وقال الأخفش : سخرت منه وسخرت به ، وضحكت منه ، وضحكت به ، وهزأت منه وهزأت به ، كل ذلك يقال ، والاسم السخرية والسخرى ، وقرئ بهما فى : ﴿ ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ [الزخرف: ٣٢] ومعنى الآية : النهى للمؤمنين عن أن يستهزئ بعضهم ببعض ، وعلل هذا النهى بقوله : ﴿ **عسى أن يكونوا خيرا منهم** ﴾ أى أن يكون المسخور بهم عند الله خيرا من الساخرين بهم ، ولما كان لفظ قوم مختصا بالرجال ؛ لأنهم القوّم على النساء أفرد النساء بالذكر فقال : ﴿ **ولا نساء من نساء** ﴾ أى ولا يسخر نساء من نساء ﴿ **عسى أن يكنّ**﴾ المسخور بهن ﴿ **خيرا منهن** ﴾ يعنى : خيراً من الساخرات منهنّ . وقيل : أفرد النساء بالذكر ؛ لأن السخرية منهنّ أكثر ﴿**ولا تلمزوا أنفسكم**﴾ اللمز : العيب ، وقد مضى تحقيقه فى سورة براءة عند قوله :﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات ﴾ [التوبة : ٥٨] قال ابن جرير : اللمز باليد والعين واللسان والإشارة ، والهمز لا يكون إلا باللسان . ومعنى ﴿ **لا تلمزوا أنفسكم** ﴾ : لا يلمز بعضكم بعضا كما فى قوله : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : ٢٩] وقوله : ﴿ فسلموا على أنفسكم﴾ [النور : ٦١] قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير : لا يطعن بعضكم على بعض . وقال الضحاك : لا يلعن بعضكم بعضا ﴿**ولاتنابزوا بالألقاب** ﴾ التنابز : التفاعل من النبز بالتسكين وهو المصدر ، والنبز بالتحريك اللقب ، والجمع أنباز ، والألقاب جمع لقب ، وهو اسم غير الذى سمى به الإنسان ، والمراد هنا : لقب السوء ، والتنابز بالألقاب أن يلقب بعضهم بعضا، قال الواحدى : قال المفسرون : هو أن يقول لأخيه المسلم :يا فاسق يا منافق ، أو يقول لمن أسلم : يا يهودى ، يا نصرانى ، قال عطاء : هو كل شىء أخرجت به أخاك من الإسلام ، كقولك : يا كلب ، يا حمار ، يا خنزير . قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يعير بكفره ، فيقال له : يا يهودى ، يا نصرانى ، فنزلت ، وبه قال قتادة وأبو العالية وعكرمة ﴿ **بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾ أى بئس الاسم الذى يذكروا بالفسق بعد دخولهم فى الإيمان ، والاسم هنا بمعنى الذكر ، قال ابن زيد : أى بئس أن يسمى الرجل كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته . وقيل : المعنى : أن من

(١) البيهقى فى الشعب (٧٥٧٧) عن النعمان بن بشير. ط : دار الكتب العلمية .

(٢) أحمد ٢/ ١٦٤ عن عبد الله بن عمر، ومسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٩١٦/ ٧٢) عن أبى هريرة والترمذى فى المناقب(٣٨٠٠) عن أبى هريرة وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب » .

فعل ما نهى عنه من السخرية واللمز والنبذ فهو فاسق ، قال القرطبى : إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحدب ولم يكن له سبب يجد فى نفسه منه عليه ، فجوزته الأئمة ، واتفق على قوله أهل اللغة .ا هـ. ﴿ **ومن لم يتب** ﴾ عما نهى الله عنه ﴿ **فأولئك هم الظالمون** ﴾ لارتكابهم ما نهى الله عنه وامتناعهم من التوبة ، فظلموا من لقبوه ، وظلمهم أنفسهم بما لزمها من الإثم .

﴿ **يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظنّ** ﴾ الظنّ هنا : هو مجرد التهمة التى لا سبب لها كمن يتهم غيره بشىء من الفواحش ، ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك ، وأمر سبحانه باجتناب الكثير ليفحص المؤمن عن كل ظنّ يظنه حتى يعلم وجهه ، لأن من الظنّ ما يجب اتباعه، فإن أكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظنّ ، كالقياس، وخبر الواحد ، ودلالة العموم ، ولكن هذا الظنّ الذى يجب العمل به قد قوى بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به ، فارتفع عن الشك والتهمة ، قال الزجاج: هو أن يظنّ بأهل الخير سوءًا ، فأما أهل السوء والفسوق فلنا أن نظنّ بهم مثل الذى ظهر منهم . قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : هو أن يظنّ بأخيه المسلم سوءًا، ولا بأس به مالم يتكلم به ، فإن تكلم بذلك الظنّ وأبداه أثم ، وحكى القرطبى عن أكثر العلماء: أن الظنّ القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ، وأنه لا حرج فى الظن القبيح بمن ظاهره القبيح . وجملة: ﴿ **إن بعض الظنّ إثم** ﴾ تعليل لما قبلها من الأمر باجتناب كثير من الظنّ ، وهذا البعض هو ظنّ السوء بأهل الخير ، والإثم هو : ما يستحقه الظانّ من العقوبة ، ومما يدل على تقييد هذا الظنّ المأمور باجتنابه بظنّ السوء قوله تعالى: ﴿ وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوما بورا ﴾ [الفتح: ١٢] فلا يدخل فى الظن المأمور باجتنابه شىء من الظنّ المأمور باتباعه فى مسائل الدين، فإن الله قد تعبد عباده باتباعه ، وأوجب العمل به جمهور أهل العلم ، ولم ينكر ذلك إلا بعض طوائف المبتدعة كيادًا للدين وشذوذا عن جمهور المسلمين ، وقد جاء التعبد بالظن فى كثير من الشريعة المطهرة بل فى أكثرها .

ثم لما أمرهم الله سبحانه باجتناب كثير من الظنّ نهاهم عن التجسس فقال : ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ التجسس : البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم ، نهاهم الله سبحانه عن البحث عن معايب الناس ومثالبهم . قرأ الجمهور: ﴿ **تجسسوا** ﴾ بالجيم ، ومعناه ما ذكرنا . وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين بالحاء . قال الأخفش : ليس ببعد أحدهما من الآخر، لأن التجسس بالجيم : البحث عما يكتم عنك ، والتحسس بالحاء : طلب الأخبار والبحث عنها . وقيل : إن التجسس بالجيم هو البحث ، ومنه قيل : رجل جاسوس : إذا كان يبحث عن الأمور ، وبالحاء : ما أدركه الإنسان ببعض حواسه . وقيل : إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه ، وبالجيم أن يكون رسولا لغيره ، قاله ثعلب ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضا** ﴾ أى لا يتناول بعضكم بعضا بظهر الغيب بما يسوءه ، والغيبة : أن تذكر الرجل بما يكرهه ، كما جاء فى حديث أبى هريرة الثابت فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «أتدرون ما الغيبة؟»

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « ذكرك أخاك بما يكره » فقيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ فقال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » (١) . ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا** ﴾ مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة ؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحىّ لا يعلم بغيبة من اغتابه ، ذكر معناه الزجاج . وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه ، وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة فى عرضه ، وفى هذا من التنفير عن الغيبة والتوبيخ لها والتوبيخ لفاعلها والتشنيع عليه ما لا يخفى ، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، وتستكرهه الجبلة البشرية ، فضلا عن كونه محرّما شرعا ﴿**فكرهتموه** ﴾ قال الفراء : تقديره : فقد كرهتموه فلا تفعلوا ، والمعنى : فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبا ، قال الرّازى : الفاء فى تقدير جواب كلام . كأنه قال : لا يحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه فكرهتموه إذن . وقال أبو البقاء : هو معطوف على محذوف تقديره : عرض عليكم ذلك فكرهتموه ﴿ **واتقوا الله** ﴾ بترك ما أمركم باجتنابه ﴿ **إن الله تواب رحيم** ﴾ لمن اتقاه وتاب عما فرط منه من الذنب ومخالفة الأمر .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قيل للنبىّ ﷺ : لو أتيت عبد الله ابن أبى ، فانطلق إليه وركب حماراً ، وانطلق المسلمون يمشون وهى أرض سبخة ، فلما انطلق إليه قال : إليك عنى ، فو الله لقد آذانى ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل منهما أصحابه ، فكان بينهم ضرب بالجريد وبالأيدى والنعال ، فنزلت فيهم : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ الآية (٢) . وقد روى نحو هذا من وجوه أخر . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى عن ابن عمر ، قال : ما وجدت فى نفسى من شىء ما وجدت فى نفسى من هذه الآية، إنى لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرنى الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : إن الله أمر النبىّ ﷺ والمؤمنين إذا اقتتلت طائفة من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله وينصف بعضهم من بعض ، فإذا أجابوا حكم فيهم بحكم كتاب الله حتى ينصف المظلوم ، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ ، وحق على إمام المؤمنين والمؤمنين أن يقاتلوهم حتى يفيؤوا إلى أمر الله ويقرّوا بحكم الله . وأخرج ابن جرير وابن مرديه عن ابن عباس : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ الآية . قال : كان قتال بالنعال والعصىّ فأمرهم أن يصلحوا بينهما. وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت : ما رأيت مثل ما رغبت عنه هذه الأمة فى هذه الآية : ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم** ﴾

(١) أحمد ٢/ ٣٨٤ ، ٣٨٦ وأبو داود فى الأدب (٤٨٧٤) والترمذى فى البر والصلة (١٩٣٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والدارمى ٢/ ٢٩٩ .

(٢) أحمد ٣/ ١٥٧ ، ٢١٩ والبخارى فى الصلح (٢٦٩١) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩٩/ ١١٧) .

قال : نزلت فى قوم من بنى تميم استهزؤوا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبى حذيفة . وأخرج عبد بن حميد ، والبخارى فى الأدب ، وابن أبى الدنيا فى ذم الغيبة ، وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ قال : لا يطعن بعضكم على بعض . وأخرج أحمد وعبد ابن حميد ، والبخارى فى الأدب ، وأهل السنن الأربع وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن حبان ، والشيرازى فى الألقاب ، والطبرانى ، وابن السنى فى عمل يوم وليلة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى جبيرة بن الضحاك قال : فينا نزلت فى بنى سلمة : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا واحدًا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله ، إنه يكرهه ، فنزلت : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ (١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : التنابز بالألقاب : أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها وراجع الحق ، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى الآية قال : إذا كان الرجل يهوديا فأسلم فيقول : يا يهودىّ ، يا نصرانىّ ، يا مجوسىّ ، ويقول للرجل المسلم : يا فاسق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ﴾ قال : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءًا . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما ، عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ :« إياكم والظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ولا تجسسوا**﴾ قال : نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن زيد بن وهب قال : أتى ابن مسعود فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمراً ، فقال ابن مسعود : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذه . وقد وردت أحاديث فى النهى عن تتبع عورات المسلمين والتجسس عن عيوبهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضا** ﴾ الآية . قال :

(١) أحمد ٤/ ٦٩ ، ٢٦٠ وأبو داود فى الأدب (٤٩٦٢) والترمذى فى التفسير (٣٢٦٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٥٣٦) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٤١) وأبو يعلى (٦٨٥٣) وابن جرير ٢٦ / ٨٤ وابن حبان فى الموارد (١٧٦١) والطبرانى (٩٦٨) ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٦٣ وقال : «على شرط مسلم» ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٧٤٦) . ط . دار الكتب العلمية .

(٢) أحمد ٢/ ٣١٢ ، ٤٦٥ والبخارى فى الأدب (٦٠٦٤) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٦٣/ ٢٨) والترمذى فى البر (١٩٨٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

حرم الله أن يغتاب المؤمن بشيء كما حرّم الميتة ، والأحاديث فى تحريم الغيبة كثيرة جدًا معروفة فى كتب الحديث .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴾

قوله : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ هما آدم وحواء، والمقصود أنهم متساوون لاتصالهم بنسب واحد وكونه يجمعهم أب واحد وأمّ واحدة ، وأنه لا موضع للتفاخر بينهم بالأنساب. وقيل: المعنى: إن كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء ﴿ **وجعلناكم شعوبا وقبائل** ﴾ الشعوب جمع شعب بفتح الشين، وهى الحىّ العظيم، مثل مضر وربيعة، والقبائل دونها كبنى بكر من ربيعة، وبنى تميم من مضر. قال الواحدى: هذا قول جماعة من المفسرين، سموا شعباً؛ لتشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة، والشعب من أسماء الأضداد. يقال : شعبته: إذا جمعته، وشعبته: إذا فرقته، ومنه سميت المنية شعوباً؛ لأنها مفرقة ، فأما الشعب بالكسر: فهو الطريق فى الجبل، قال الجوهرى: الشعب: ما تشعب من قبائل العرب والعجم، والجمع الشعوب، وقال مجاهد: الشعوب: البعيد من النسب، والقبائل دون ذلك . وقال قتادة : الشعوب: النسب الأقرب. وقيل: إن الشعوب: عرب اليمن من قحطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان. وقيل: الشعوب: بطون العجم والقبائل: بطون العرب. وحكى أبو عبيد أن الشعب: أكثر من القبيلة، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، ثم العشيرة، ومما يؤيد ما قاله الجمهور من أن الشعب أكثر من القبيلة قول الشاعر :

قبائل من شعوب ليس فيهم كريم قد يعد ولا نجيب

قرأ الجمهور: ﴿ **لتعارفوا** ﴾ بتخفيف التاء، وأصله: لتتعارفوا فحذفت إحدى التاءين . وقرأ البزّى بتشديدها على الإدغام، وقرأ الأعمش بتاءين واللام متعلقة بخلقناكم ، أى خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا، وقرأ ابن عباس: « لتعرفوا » مضارع عرف .

والفائدة فى التعارف : أن ينتسب كل واحد منهم إلى نسبه ولا يعترى إلى غيره . والمقصود من هذا: أن الله سبحانه خلقهم كذلك لهذه الفائدة لا للتفاخر بأنسابهم، ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب، وهذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة، وهذا البطن أشرف من هذا البطن، ثم علل سبحانه ما يدل عليه الكلام من النهى عن التفاخر فقال: ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ أى إن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى ، فمن تلبس بها فهو المستحق لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها وأشرف وأفضل ، فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالأنساب ، فإن ذلك لا يوجب كرما ، ولا يثبت شرفا ، ولا يقتضى فضلا ، قرأ الجمهور : ﴿ **إن أكرمكم** ﴾ بكسر إن . وقرأ ابن عباس بفتحها ، أى لأن أكرمكم ﴿ **إن الله عليم** ﴾ بكل معلوم ، ومن ذلك أعمالكم ﴿ **خبير** ﴾ بما تسرون وما تعلنون لا تخفى عليه من ذلك خافية .

ولما ذكر سبحانه أن أكرم الناس عند الله أتقاهم له، وكان أصل التقوى الإيمان ذكر ما كانت تقوله العرب من دعوى الإيمان ليثبت لهم الشرف والفضل فقال: ﴿ **قالت الأعراب آمنا** ﴾ وهم بنو أسد أظهروا الإسلام فى سنة مجدبة يريدون الصدقة ، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يردّ عليهم فقال : ﴿ **قل لم تؤمنوا** ﴾ أى لم تصدقوا تصديقا صحيحا عن اعتقاد قلب وخلوص نية وطمأنينة ﴿ **ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ أى استسلمنا خوف القتل والسبى أو للطمع فى الصدقة، وهذه صفة المنافقين ؛ لأنهم أسلموا فى ظاهر الأمر ولم تؤمن قلوبهم، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** ﴾ أى لم يكن ما أظهرتموه بألسنتكم عن مواطأة قلوبكم ، بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح ولا نية خالصة ، والجملة إما مستأنفة لتقرير ما قبلها ، أو فى محل نصب على الحال . وفى « لما » معنى التوقع . قال الزجاج : الإسلام : إظهار الخضوع وقبول ما أتى به النبىّ ، وبذلك يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان وصاحبه المؤمن ، وقد أخرج هؤلاء من الإيمان بقوله : ﴿ **ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** ﴾ أى لم تصدّقوا وإنما أسلمتم تعوذّا من القتل، ﴿ **وإن تطيعوا الله ورسوله** ﴾ طاعة صحيحة صادرة عن نيات خالصة وقلوب مصدقة غير منافقة ﴿ **لا يلتكم من أعمالكم شيئا**﴾ يقال :لات يلت : إذا نقص ، ولاته يليته ويلوته : إذا نقصه ، والمعنى : لا ينقصكم من أعمالكم شيئا . قرأ الجمهور : ﴿ **يلتكم** ﴾ من لاته يليته كباع يبيعه ، وقرأ أبو عمرو : « لا يألتكم » بالهمز من يألته بالفتح فى الماضى والكسر فى المضارع ، واختار قراءة أبى عمرو أبوحاتم لقوله : ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شىء ﴾ [الطور : ٢١] وعليها قول الشاعر :

أبلغ بنى أسد عنى مغلغلة جهر الرسالة لا ألتا ولا كذبا

واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور ، وعليها قول رؤبة بن العجاج :

وليلة ذات ندى سريت ولم يلتنى عن سراها ليت

وهما لغتان فصيحتان ﴿ **إن الله غفور** ﴾ أى بليغ المغفرة لمن فرط منه ذنب ﴿ **رحيم** ﴾ بليغ الرحمة لهم، ثم لما ذكر سبحانه أن أولئك الذين قالوا آمنا لم يؤمنوا ولا دخل الإيمان فى قلوبهم، بين المؤمنين المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم فقال : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله** ﴾ يعنى : إيمانا صحيحا خالصا عن مواطأة القلب واللسان ﴿ **ثم لم يرتابوا** ﴾ أى لم يدخل قلوبهم شىء من الريب ولا خالطهم شكّ من الشكوك ﴿**وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ أى فى طاعته وابتغاء مرضاته، ويدخل فى الجهاد الأعمال الصالحة التى أمر الله بها ، فإنها من جملة ما يجاهد المرء به نفسه حتى يقوم به ويؤدّيه كما أمر الله سبحانه والإشارة بقوله: ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الجامعين بين الأمور المذكورة وهو مبتدأ، وخبره قوله: ﴿ **هم الصادقون** ﴾ أى الصادقون فى الاتصاف بصفة الإيمان والدخول فى عداد أهله ، لا من عداهم ممن أظهر الإسلام بلسانه، وادعى أنه مؤمن، ولم يطمئن بالإيمان قلبه، ولا وصل إليه معناه، ولا عمل بأعمال أهله، وهم الأعراب الذين تقدم ذكرهم وسائر أهل النفاق. ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لأولئك الأعراب وأشالهم قولاً آخر لما ادعوا أنهم مؤمنون فقال: ﴿ **قل أتعلمون الله بدينكم** ﴾ التعليم ها هنا بمعنى الإعلام، ولهذا دخلت الباء فى بدينكم، أى أتخبرونه بذلك حيث قلتم آمنا ﴿ **والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ فكيف يخفى عليه بطلان ما تدّعونه من الإيمان، والجملة فى محل النصب على الحال من مفعول تعلمون ﴿ **والله بكل شىء عليم** ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، وقد علم ما تبطنونه من الكفر وتظهرونه من الإسلام لخوف الضراء ورجاء النفع .

ثم أخبر الله سبحانه رسوله بما يقوله لهم عند المن عليه منهم بما يدعونه من الإسلام فقال : ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا** ﴾ أى يعدّون إسلامهم منة عليك حيث قالوا جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ﴿ **قل لا تمنوا على إسلامكم** ﴾ أى لا تعدوّه منة على، فإن الإسلام هو المنة التى لا يطلب موليها ثواباً لمن أنعم بها عليه، ولهذا قال: ﴿ **بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان** ﴾ أى أرشدكم إليه وأراكم طريقه سواء وصلتم إلى المطلوب أو لم تصلوا إليه، وانتصاب ﴿ **إسلامكم** ﴾ إما على أنه مفعول به على تضمين يمنون معنى يعدّون، أو بنزع الخافض، أى لأن أسلموا، وهكذا قوله: ﴿ **أن هداكم للإيمان** ﴾ فإنه يحتمل الوجهين ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فيما تدعونه، والجواب محذوف يدل عليه ما قبله، أى إن كنتم صادقين فلله المنة عليكم، قرأ الجمهور: ﴿ **أن هداكم** ﴾ بفتح « أن »، وقرأ عاصم بكسرها. ﴿ **إن الله يعلم غيب السموات والأرض** ﴾ أى ما غاب فيهما ﴿ **والله بصير بما تعملون** ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شىء، فهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شرا. قرأ الجمهور: ﴿ **تعملون** ﴾ على الخطاب، وقرأ ابن كثير على الغيبة.

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن أبى مليكة قال : لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذن على الكعبة ، فقال بعض الناس : أهذا العبد الأسود يؤذن على

ظهر الكعبة ، وقال بعضهم : إن يسخط الله هذا يغيره فنزلت : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبو داود فى مراسيله ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن الزهرى قال : أمر رسول الله ﷺ بنى بياضة أن يزوّجوا أبا هند امرأة منهم . فقالوا : يا رسول الله، أنزوج بناتنا موالينا ؟ فنزلت هذه الآية [١] . وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب أن هذه الآية : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ هى مكية ، وهى للعرب خاصة الموالى ، أى قبيلة لهم ، وأى شعاب ، وقوله : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ فقال : أتقاكم للشرك . وأخرج البخارى وابن جرير عن ابن عباس قال : الشعوب : القبائل العظام ، والقبائل : البطون . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : القبائل : الأفخاذ ، والشعوب : الجمهور مثل مضر . وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أى الناس أكرم ؟ قال: « أكرمهم عند الله أتقاهم » ، قالوا: ليس عن هذا نسألك . قال : « فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال :« فعن معادن العرب تسألونى » ؟ قالوا: نعم. قال:« خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » [٢] . وقد وردت أحاديث فى الصحيح وغيره أن التقوى هى التى يتفاضل بها العباد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قالت الأعراب آمنا** ﴾ قال : أعراب بنى أسد وخزيمة ، وفى قوله : ﴿ **ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ مخافة القتل والسبى. وأخرج ابن جرير عن قتادة أنها نزلت فى بنى أسد . وأخرج ابن المنذر والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند حسن ، عن عبد الله بن أبى أوفى : أن ناساً من العرب قالوا : يا رسول الله ، أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأنزل الله : ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا** ﴾ [٣] . وأخرج النسائى والبزار وابن مردويه عن ابن عباس نحوه ، وذكر أنهم بنو أسد [٤] .

---

(١) أبو داود فى المراسيل ﷺ ١٩٥ (٢٣٠) والبيهقى فى النكاح ٧/ ١٣٦ .

(٢) أحمد ٢/ ٤٣١ والبخارى فى الأنبياء (٣٣٥٤ ، ٣٣٧٤) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٨/ ١٦٨) .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١١٥ : « رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفيه الحجاج بن أرطأة وهو ثقة ولكنه مدلس ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٤) النسائى فى التفسير (٥٣٩) .